فيه وسعيًا إليه ، ولذلك لا تؤدى حواسه مهامها بانسجام ، وكأن الذين يسمعون ولا يستجيبون هم من الموتى . فالأمر ـ إذن ـ ليس مقصورًا على السمع بل المطلوب أن يكون هناك سماع انفعال بالمسموع وانصياع له ، ولا تظن أن الله يعجز عن أن يجعل الذى لا يسمع سماع طاعة يهتدى ويستقيم ، فلا شىء ولا كائن يتأبى على الله ؛ لأنه سبحانه يحيى الموتى .

ومادام هو سبحانه يحيى الموتى فهو لا يطلب إيماناً جبرياً . إنما يطلب إيمان الاختيار والاقتناع ، وهو سبحانه لو شاء لأنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وسبحانه يطلب قلوباً لا قوالب . إذن فالذين يستجيبون لداعى الإيمان هم الأحياء حقاً ، أما الذين لا يستجيبون فهم فى حكم الأموات ، وهم من بعد موتهم وانتهاء حياتهم سيبعثهم الله ليسألهم عن أفعالهم فى الحياة الدنيا . وعندما يرجعون إلى الله سوف يجدون الحساب . ونعلم أن المرجع أخيراً ودائماً إلى الله . ومن يرجع إلى الله وعمله طيب يتعجل الجزاء الطيب ويتشوق ويتشوف إليه ، أما من يرجعه الله قهراً فهو يخشى الجزاء الأليم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إن الله سبحانه يوضح لنا مواصلتهم للجدل ، وطلبهم لآية ما . والآية هى الأمر العجيب الذى يبعثه الله على يد نبى ليثبت صدقه فى تبليغه عن الله . وكأنهم لا يريدون أن يعترفوا أن القرآن آيات بينات على الرغم من اعترافهم بعظمة القرآن ، فقد قالوا :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولكنهم لم يعترفوا بالقرآن كآية معجزة ؛ لأنهم عرفوا أن الرسل السابقين قد نزل كل منهم بآية معجزة منفصلة عن المنهج الذى جاء به ، فموسى عليه السلام معجزته العصا ، ويده التى أخرجها من جيبه فكانت بيضاء من غير سوء ، وشق البحر ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام كانت معجزته التكلم فى المهد بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وجاء بالإنجيل مكملاً بالروحانيات تلك الماديات التى ملأت نفس اليهود . وبعد أن قالوا عن رسول الله إنه يفترى الكذب تحداهم الحق أن يأتوا بمثل القرآن ثم نزل بهم إلى أن يأتوا بعشر سور من مثله ثم إلى أن يأتوا بمثل سورة واحدة من أقصر سوره . إذن ، فالافتراء وارد عليكم أيضا ، فكما أن محمدًا افترى فيمكن أن تفتروا أنتم كذلك فيما نبغتم وتفوقتم فيه من أساليب البلاغة . إن القرآن قد تحداهم ومادام قد تحداهم فإنه معجزة ؛ لأن الأصل فى المعجزة التحدى ، ويتحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن فلا يستطيعون ، إنه يتحداهم فى أمر اللغة ، وهم سادة اللغة وهم النابغون فيها .

جاء القرآن ليتحداهم فى مجال نبوغهم ، ولكنّ بعضاً من العرب طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية كونية يرونها . وأعماهم الحمق عن معرفة أن المعرفة الحسية موقوتة التأثير ، من يراها يقول إنها معجزة ، ومن لم يرها قد يصدق وقد يكذب . ونحن ـ المسلمين ـ لا نصدق المعجزات الحسية إلا لأن القرآن أوردها ؛ ولأن القرآن قد جاء للناس كافة ؛ لذلك لم يكن من المعقول أن يكون المنهج الخاتم منفصلاً عن معجزة النبى الذى جاء به .

جاء القرآن ـ إذن ـ معجزة لرسول الله وهو آية معنوية دائمة أبداً بما فيه من أحكام ونظم ، وآيات كونية وقضايا علمية ، وإذا كان الخلق يختلفون فى اللغات فما تضمنه القرآن من معجزات لن تنقضى عجائبه إلى يوم القيامة . وكل يوم نستنبط من آيات الله معجزات جديدة تُخرس كل مكذب ، لأنها معجزات كونية ، ومن العجيب أن بعض الذين يستنبطونها ليسوا من المسلمين ، ولا هم من المؤمنين بالقرآن .

ولكنّ بعضاً من المشركين لم يكتف بالقرآن على أنه آية ومعجزة دالة على صدق الرسول ، وطالبوا بمعجزة حسية . فهل كان ذلك الطلب للآية حقيقيا يرجون من ورائه معرفة الحق والإيمان به أو كان مجرد سبب يختفون وراءه حتى لا يؤمنوا ؟ إن كان

طلب الآية هو أمرًا حقيقياً نابعًا من قلوبهم فإننا نأخذ بأيديهم ونرشدهم ونهديهم ونقول لهم : إن الرسل التى جاءت بمعجزات غير كتاب المنهج كانوا رسلاً إلى أمم مخصوصة وفى زمان محدود ، فجاءت معهم آيات كونية تُرى مرة واحدة وتنتهى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لعموم الزمان ، ولعموم المكان ، ولذلك لا تصلح أن تكون آيته ومعجزته حسية ؛ حتى لا تنحصر فى الزمان والمكان المحددين ، وشاء الحق أن تكون معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى المنهج الدائم . وكنز القرآن أظهر وكشف من الآيات الكونية ما تحقق من علم ورآه البشر ، وما سيظل يكتشفه البشر إلى أن تقوم الساعة . ولذلك قال الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

أى أن البشر سيريهم الله وسيكشف لهم من آياته حتى يظهر ويستبين لهم وجه الحق ، وإن كنتم تقترحون آية لمجرد التمحك والتلكؤ فى إعلان الإيمان ، فلتعلموا أن أقواماً غيركم اقترحت الآيات وأنزل الحق هذه الآيات ومع ذلك كفروا :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

مثلما طلب قوم صالح الناقة ، فجاءهم بالناقة ، فكذبوا بتلك الآية وعقروا الناقة : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » . إذن فمسألة طلب الآيات قد سبقت فى أمم سابقة ، وسبحانه قادر على إنزال الآيات ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون . وسيقولون مثلما قال الذين تكلم فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

ولقد أنزل الحق سبحانه القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه آيات كثيرة عظمت وجلت عن أن تحصى وتحصر ، ولو أنهم اقترحوا آية وحققها الله لهم ولم يؤمنوا لكان حقاً على الله أن يبيدهم جميعاً . ولقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعداً بألا يهلكهم وهو صلى الله عليه وسلم فيهم : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

إذن فعدم استجابة الله لإنزال آية لهم هو نوع من الحرص عليهم ، ذلك أن منهم من سيؤمن ، ومنهم من سيكون من نسله مؤمنونٌ يحملون المنهج ويقومون به إلى أن تقوم الساعة لأنهم أتباع وحملة الرسالة الخاتمة .

وبعد ذلك يأتى الحق بالبيان الارتقائى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

إنه سبحانه يوضح لنا : أنا أعطى الآيات التى أعلم أن الفطرة السليمة تستقبلها كآية وتؤمن بها . وأنزلت لكم القرآن لتؤمنوا بالرسول الذى يحمله منهجاً يُصلح حياتكم . وقد جعلتكم سادة للكون ؛ تخدمكم كل الكائنات ، لأنكم بنو آدم . وكان الأجدر بكم أن تنتبهوا إلى أن الحيوان فى خدمتكم ، والنبات فى خدمة الحيوان وخدمة الإنسان ، وكل كائنات الوجود تصب جهدها المسخر لخدمتكم . فإذا كنتُ قد جئتُ للأجناس كلها وجعلتُها دونكم وأعطيتها ما يصلحها ويقيمها ووضعت لها نظاماً ، وأعطيتها من الغرائز ما يكفى لصلاح أمرها حتى تؤدى مهمتها معكم على صورة تريحكم فإذا كان هذا هو شأننا وعملنا مع من يخدمكم فكيف يكون الحال معكم ؟ إننى أنزلت المنهج الذى يصلح حياة من استخلفته سيداً فى الأرض .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكل الدواب دون الإنسان أعطاها الإله الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة . وميز الإنسان فوق كل الكائنات بالعقل ، ولكن الإنسان يستخدم عقله مرة استخداما سليما صحيحا فيصل إلى الإيمان ، ويستخدمه مرة استخداما سيئا

فيصل عن الإيمان . وكان على الإنسان أن يعلم أنه تعلم محاكاة ما دونه من الكائنات ؛ فقابيل تعلم من الغراب كيف يوارى سوأة أخيه . ومصمم الطائرات تعلم صناعة الطيران من دراسة الطيور . إذن كان يجب أن يتعلم الإنسان أن له خالقاً جعل له من الأجناس ما تخدمه ليطور من حياته ومن رعاية كرامته بعد الموت . والمثال ما قالته نملة لبقية النمل :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

إن النمل أمة لها حرس ، قالت حارسة منهم هذا القول تحذيراً لبقية النمل .

والله سبحانه يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التى خلقها الله فى الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم . وأعلمنا الله أنه علم سيدنا سليمان لغات كل الأقوام وكل الأمم المخلوقة لله ، ولذلك عندما سمع سيدنا سليمان ما قالته النملة : تبسم « ضاحكاً من قولها » .

وهكذا علمنا أن الله أعطى أذن سليمان عليه السلام ما جعلها تمتلك حاسية التقاط الذبذبة الصادرة من صوت النملة وتفهم ما تعطيه وتؤديه تلك الذبذبة ، لذلك تبسم سليمان عليه السلام من قولها ؛ لأن الله علمه منطق تلك الكائنات . ولو علمنا الله منطق هذه الكائنات لفقهنا تسبيحهم لله ، ونحن لا نفقه تسبيحهم لأننا لم نتعلم لغتهم . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ قد يسافر إنسان عربى إلى بلاد تتحدث الإنجليزية وهو يجهل تلك اللغة ، فلا يفهم مما يقال شيئاً . إذن لو علمك الله منطق الطير ، ومنطق الجماد ، ومنطق النبات ؛ لعلمت لغاتهم .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

إن الجماد ـ الجبال ـ تسبح مع داود . وكذلك الطير ؛ فهاهوذا الهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وحز فى نفسه أنه رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

إذن فالهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وعرف أن للشيطان مداخل على الكائن الحى ، وعرف أن السجود إنما يكون لله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن كل الكائنات هى أمم أمثالنا . وقد يقول قائل : ولكن هناك كائنات ليست فى السماء ولا فى الأرض ، مثل الأسماك التى فى البحار ؟ ونقول : إن الماء ثلاثة أرباع الأرض والسمك يسبح فى جزء من الماء الذى هو جزء من الأرض . فهو يسبح فى جزء من الأرض ، فسبحانه الذى خلق الدواب فى الأرض ، وخلق الطيور . وخلق الأدنى من هذه الأمم وهداها إلى مصلحتها ومصدر حياتها : « الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » .

ونرى العلماء يحاولون الآن اكتشاف لغة الأسماك ، واكتشاف كل أسرار مملكة النحل ونظامها ، وكيف تصير أعشاش النمل مخازن فى الصيف لقوت الشتاء . ودرسوا سلوك النمل مع حبة القمح ، وكيف تخلع النملة خلايا الإنبات من بذرة القمح ، لأن خلايا الإنبات إن دخلت مع حبة القمح إلى مخزن غذاء النمل قد تنبت وتدمر جحر النمل . وهكذا نرى صدق الحق الأعلى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الأعلى)

وقرون الاستشعار فى النملة تثير العلماء ؛ لأن النملة الواحدة ترى على سبيل المثال

قطعة السكر ، فلا تقربها ولكنها تذهب لاستدعاء جيش من النمل قادر على تحريك قطعة السكر . ووجد العلماء أن وزن الشىء الذى يتغذى به النمل إن زاد على قدرة نملة ، فهى تستدعى أعداداً من النمل ليؤدوا المهمة .

وتساءل العلماء : من أين للنمل إذن هذه القدرة على تحديد الكتلة والحجم والوزن ؟ إن تحديد العدد الذى يحمل حجماً محدداً يثير الغرابة والعجب ، فكيف يمكن أن نتصور أن النمل يفرق بين شيئين يتحد حجمهما ويختلف وزنهما ككتلة من حديد وأخرى تماثلها فى الحجم من الأسفنج ؟ إن النمل يستدعى لكتلة الحديد أضعاف ما يستدعيه لحمل كتلة الأسفنج مع اتحادهما فى الحجم ؛ إنها من قدرة الحق الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى .

ثم إنك تلتفت إلى الحيوان فتجد الذكر والأنثى ، وتجد أن الجمال كله فى ذكور الحيوان ، بينما لا يكون الأمر كذلك فى إناث الحيوان ، والكثرة الغالبة هى من الإناث والقلة من الذكور ، ولا يقرب الذكر أنثاه إلا فى موسم معين، وإلى أن يأتى موسم التلقيح تنصرف الأنثى إلى إعداد العش وتهيئته لما عساه أن يوجد من نتاج ، وهذه العملية لحكمة عالية ربما تكون لبقاء نوع الحيوان حتى يعين الإنسان فى إعمار الأرض .

وفى عالم الطير نجد الطيور تبنى العش بفن جميل لاستقبال الفرخ الذى خرج من البيض وتفرش له العش بأنعم الأشياء ، إنها تفعل ذلك بإتقان جيد وبصورة ربما يعجز البشر أن يعمل مثلها . ثم نجد فى دنيا الحيوان والطير أن الكائن ما إن يبلغ القدرة على الاعتماد على نفسه فلا تعرف الأم ابنها من ابن غيرها . إذن فكل المخلوقات أمم أمثالنا أرزاقاً وآجالاً ، وأعمالاً ، فصدق الله إذ يقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

وقد يكون المراد من الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ، ولكننا نقول : إنه القرآن ، وكل شىء موجود ومذكور أو مطمور فى القرآن الكريم . وذكر القرآن أن هذه الأمم تعرف التوحيد ، وأنهم يسبحون لله . والعمل المعاصر يكتشف فى كل دقيقة حقائق هذا الكون المنظم . ونجد العقل يهدينا إلى أن نوجد أشياء لصالح حياتنا ، ولكن عندما نتبع الهوى فإننا نفسد هذا الكون . إن الله ـ سبحانه ـ جعل للخادم من دواب

الأرض نطاقًا للعمل والرزق والأجل بحكم الغريزة ، وكذلك جعل للطير ، ولكل الكائنات :

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى محكم آياته الكريمة :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

إذن كل شيء يحشر يوم القيامة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء[1] من الشاة القرناء »[2].

أى أن الحق سبحانه يقتص من الشاة ذات القرون التى نطحت الشاة التى بلا قرون ويعوضها عن الألم الذى أصابها . وبعد أن يأخذ كل كائن من غير الإنس والجن حقه يصير إلى تراب . أما الذين يسمعون ولا يستجيبون فهم المكذبون بالآيات ، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

والصمم آفة تصيب الأذن فلا تسمع . والبكم آفة تصيب اللسان فلا ينطق . والبكم مرتبط بالصمم ؛ لأن الإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ فالإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع .

إن البشر ينشأون فى بيئات مختلفة اللغة ولا يتكلمون إلا باللغة التى نشأوا فى

(١) الجلحاء : هى التى لا قرن لها ، بعكس القرناء .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد بن حنبل .

بيئتها ؛ لأن اللغة ليست دماً ولا جنساً . بل اللغة سماع . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ولا يقرأ الإنسان إلا إذا سمع وعرف ارتباط ما يسمع بما يرى ؛ لذلك نعرف أن السمع هو المنفذ الأول للإدراك ، ولهذا كان الصمم قبل البكم .

ولكن هل الإدراك مرتبط بالصمم والبكم فقط ؟ لا ، إن الإنسان يسمع أولاً ، ثم يرى ، ثم يتذوق ، ثم يشم ، ثم يلمس ، ثم تأتى له المعلومات العقلية . والمثال على ذلك أن كل إنسان يعرف أن النار محرقة ، وهو لم يعرف هذا إلا لأنه وجدها قد لمست كائناً وأحرقته . ومثال آخر : يتفق الناس على أن صوت العندليب جميل ، وهذا الاتفاق جاء من سماع الناس لصوت العندليب . إذن فالمعلومات العقلية تأتى نتيجة للمعلومات الحسية .

« صم وبكم فى الظلمات » إنهم بلا قدرة أيضاً على إبصار الهداية من أى ناحية ؛ صم لا يسمعون لكلمة الحق ، وبكم لا ينطقون ، وفى ظلمات لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان . وكل ذلك مردود إلى المشيئة : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » لكن هل اقتحمت المشيئة على الناس وقهرتهم ؟ لا ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة غافر)

وقال سبحانه أيضاً : « والله لا يهدى القوم الظالمين » إذن ، فبتقديمهم الظلم ، والفسق ، والكفر ، وقد فعلوا ذلك اختياراً فصار المرض واستقر فى قلوبهم وزادهم الله مرضاً ، وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك به ، فمن أشرك مع الله شيئاً فهو له . ويأتى من بعد ذلك أمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

و« أرأيتكم » مكونة من استفهام وفعل ، ومن ضمير وهو لفظ التاء المفتوح

للمخاطب كقولك : « أرأيت فلاناً » وكأنك تقول له : « إن كنت قد رأيته فأخبرنى عنه » ، وعندما تقول للمخاطب ذلك فأنت تستفهم منه عن شيء رآه وأبصره وبعد ذلك تأتى بكاف الخطاب ، فكأنك تقول له :أخبرنى عنك ، فيكون المعنى أخبرونى عن أنفسكم ، وهكذا تكون : « أرأيتكم » معناها : أخبرونى عن حالكم إخبار من يرى . فالأمر إذن لرسول الله ليسأل المشركين أن يخبروه ماذا يفعلون عندما يصيبهم الضر أو أى شيء فوق الأسباب ، هل هم يدعون اللات والعزى ؟

لا ، إنهم لا يستطيعون وقت الخطر الداهم أن يكذبوا على أنفسهم ، إنما ينادون الله الذى لا يعلنون الإيمان به . ولو كانوا صادقين مع كفرهم لما نادوا الله ، بل كان يجب أن ينادوا آلهتهم ؛ لكنهم فى لحظة الخطر يقولون : « يارب » كأنهم يعرفون أنه لا منقذ لهم إلا هو سبحانه . وهكذا ينكشف أمامهم كذب كفرهم وشركهم بالله . ولا أحد يغش نفسه ، حتى الدجال الذى يدعى ممارسته شفاء الناس ، إن أصابه مرض نجده يلجأ إلى طبيب متخصص متعلم . فلا أحد يغش نفسه ، وساعة يمس الخطر ذات الإنسان نجد الحقيقة تنبع من الإنسان نفسه .

ويسألهم النبى صلى الله عليه وسلم : مَنْ يدعونه لحظة الخطر ؟ إنهم يدعون الله . وكأنهم لا يثقون فى آلهتهم :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَـٰنَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لكن ماذا يحدث عندما يعود للقلب غلظته ؟

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا إذن يطلب من الله النجدة وقت الخطر ، ولا يتبع التكليف ؟ يأتى الأمر إلى الرسول ليسألهم من تدعون لحظة الخطر ؟ ويأتى الجواب أيضاً من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

إنكم - أيها المشركون - لا تدعون إلا الله أن يكشف عنكم الضر ، فإن رأى أن من الحكمة أن يجيب دعاءكم أجابه . وإن رأى أن من الحكمة ألا يجيب فهو لا يجيب . وهم يدعون الله وينسون آلهتهم ومن أشركوهم بالعبادة مع الله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

لقد أرسل الحق لأمم سابقة رسلاً بالآيات والمنهج ، فكذبتهم أقوامهم ، فأخذهم الله بالشدائد والأحداث التي تضر إما في النفس ، وإما في المال ، بالمرض ، بالفقر ، لعلهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى .

إذن فالحق حين يمس الإنسان بالبأساء أي بالشدائد أو بالضراء ، أي بالشيء الذي يضر ويؤذي ، إنما يريد من الإنسان أن يختبر نفسه ، فإن كان مؤمناً بغير الله فليذهب إلى من آمن به ، ولن يرفع عنه تلك البأساء أو ذلك الضر إلا عندما يعود إلى الله . وعندما يتضرع إلى الله قد لا يقبل الله منه مثل هذا التضرع ويقول سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

إنه - سبحانه - يحثهم ويحضهم على أن يتضرعوا ويتذللوا إلى الله ليرفع عنهم ما نزل بهم ، ولكن قلوبهم القاسية تمنعهم حتى فى لحظة المس بالضر أن يلجأوا إلى الله خوفاً من اتباع التكليف . إن قسوة القلب تكون بالصورة التى لا ينفذ إليها الهدى وكما قال الحق :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى صارت قلوبهم مغلقة ومغطاة بعد أن طبع الله وختم عليها فلا تقبل الخير ولا تميل إليه ، فلا يؤمنون .

ويتابع الحق القول الكريم :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

إنهم عندما نسوا ما جاءهم من تذكير الحق لهم بالمنهج والتوحيد من خلال الرسل إنه - سبحانه - يصيبهم بالعذاب الذى يفاجئهم به فيقعون فى حيرة تأخذ عليهم ألبابهم وتتشتت قلوبهم وتقطع رجاءهم .

والرسل إنما تأتى لتذكر ؛ لأن الإيمان موجود بالفطرة . ولكن الغفلة هى التى تخفى الإيمان . والإنسان يحيا فى كون ملىء بالنعم ولا دخل لأحد بها ، ولا يد لأحد فيها ، ولم يدعها أحد لنفسه ، كان يجب على هذا الإنسان أن يعيش دائماً فى رحاب الحمد لله ، مولى هذه النعمة .

والتذكير من الحق لعباده يكون بالنعم أو الرسل الذين يأتون بالرسالات المتوالية . وهب أن إنساناً قد غفل عن نعمة الله فى الطعام ، ثم جاءت لحظة الجوع ، فجلس

يشتهى الطعام فمنحه الله ذلك الطعام فكيف ينسى لحظة الشبع من وهب له هذا الطعام .

« فلما نسوا ما ذكروا به » إما أن يكون هو الإخبار بواسطة الرسل الذين يذكرون الناس بأن المنعم هو الله ، وأن الله أنزل المنهج ليصلح الكون به ، وإما أن يكون بواسطة النعم التى تمر على الإنسان فى كل لحظة من اللحظات ؛ لأنها تنبه الإنسان إلى أن هناك من أعطاها . مثال ذلك ساعة يستر الإنسان عورته وجسده بلباس جميل ، ألا يتساءل عن الذى وهب الصانع تلك الموهبة التى صمم بها الزى . إذن كيف يأخذ الإنسان النعمة ولا يتذكر المنعم ؟ إن الله سبحانه لا يحرمهم من النعم ساعة أن تركوا شكرها ، بل يفتح عليهم أبواب كل شىء ، أى يعطيهم من النعم أكثر وأكثر ، فيترفون ويعيشون فى ألوان من حياة العز والصحة والسعة والجاه والسيطرة والمكانة . ثم ما الذى يحدث ؟ « أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وقلنا من قبل هذا المثل الريفى : لا يقع أحد من فوق الحصير . ولكن الحق يعلى الكافر المشرك فى بعض الأحيان ثم يأخذه بغتة فيقع ليكون الألم عظيماً . فإن رأيت إنساناً أسرف على نفسه ووسع الحق عليه فى نظام الحياة . إياك أن تفتن وتقول : آه إن الكافر الظالم يركب أفخر السيارات ويعيش فى أبهى القصور ، لا تقل ذلك لأنك سترى نهاية هذا الظالم البشعة .

وانظر إلى دقة التعبير فى قول الحق تبارك وتعالى : « فتحنا عليهم أبواب كل شىء » لقد فتح عليهم . . أى سلط عليهم ، لا فتح لهم . ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن الكريم : « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » .

وهكذا نعرف أن الفتح لك غير الفتح عليك ؛ لأن الفتح على أحد يعنى الاستدراج إلى إذلال قسرى سوف يحدث له . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

إن القبض يأتى لحظة الفرح . وكثيراً ما نرى مثل هذه الأحداث فى الحياة ،

نلتفت إلى كارثة تحدث للعريس أو العروس فى يوم الزفاف . ويصدق قول الشاعر :

مشت الحادثات فى غرف الحمراء
مشى النعى فى دار عرس

وهذا يشرح القول الكريم :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وعندما ندقق فى كلمة : « بما أوتوا » فإننا نجد أن ما حصلوا عليه من نعمة إنما جاءهم كتمهيد إلهى ييسر هذه المسائل ، ثم يأخذهم الحق بغتة ، أى أن الحادث الضار يأتى بدون مقدمات ؛ لأن مجىء المقدمات قد يجعل الإنسان يتيقظ ويحتاط أو يتوقع ذلك . ونعرف أن الحق يقول فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنعام)

أى أن العذاب قد يأتى مرة بغتة ، وقد يأتى مرة أخرى جهراً . والعذاب يأتى بغتة عقاباً ، ويأتى جهرة حتى لا يقولن أحد : لولا أنّ مجىء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلك الأمر . ويأتيهم العذاب وهم مبلسون أى يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم .

ويتابع الحق ما يحدث لهؤلاء :

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ومادام هؤلاء القوم قد نسوا ما ذُكِّروا به ، وفتح الله عليهم أبواب كل شىء ثم فرحوا بما أوتوا وأخذهم الحق بغتة ، كل ذلك يلفتنا إلى أنه يجب علينا أن نحمد الله لأنه يربى الخلق بالنقمة والنعمة ويطهر الكون من المفسدين ، وقطع دابر المفسدين

مصيبة لهؤلاء المفسدين ، ونعمة من نعم الله على المؤمنين . وقد يتساءل البعض : كيف يأتي القرآن بالنقم وكأنها نعم ؟

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

إنها نقم يتحدث عنها الحق كإرسال الشواظ من نار ونحاس ، وهى نقم بالنسبة للكافرين وعليهم ، وهى نعم للمؤمنين . ونعلم أن التهويل فى أمر العذاب يجعل الناس ترتدع ، وهذا الوعيد نعمة من الله . وحين يتجلى الحق بنعمه على خلقه ويقطع دابر الظالمين ، يقول المؤمنون الحمد لله :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويعود الحق إلى استنطاقهم بالإخبار عن المرئيات :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هنا يأمر الحق نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنطقهم : ماذا يفعلون إن سلب الله السمع وغطى قلوبهم بما يجعلها لا تدرك شيئاً ، وسلب منهم نعمة البصر ، هل هناك إله آخر يستطيع أن يرد لهم ما سلبه الحق سبحانه منهم ؟ لقد أخذوا نعمة الله

واستعملوها لمحادّة الله وعداوته ، أخذوا السمع ولكنهم صموا عن سماع الهدى ، وأخذوا الأبصار ولكنهم عموا عن رؤية آيات الله . ومنحوا القلوب ولكنهم أغلقوها فى وجه قضايا الخير . فماذا يفعلون إن أخذ الله منهم هذه النعم ؟ هل هناك إله آخر يلجأون إليه ليستردوا ما أخذه الله منهم ؟

وترى فى الحياة أن الحق قد حرم بعضاً من خلقه من نعم أدامها على خلق آخرين . إن فى ذلكٌ وسيلة إيضاح فى الكون . وإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين سلب إنساناً نعمة ، أنّه يكره هذا الإنسان ، إنه سبحانه أراد أن يذكر الناس بأن هناك منعماً أعلى يجب أن يؤمنوا به . فإن أخذ الحق هذه النعم من أى كافر فماذا سيفعل ؟ إنه لن يستطيع شيئاً مع فعل الله .

وهاهوذا النبى يوضح لهم بالبراهين الواضحة ، ولكنهم مع ذلك يُعْرِضون عن التدبر والتفكر والإيمان « ثم هم يصدفون » .

والمؤمن حين يرى إنساناً من أصحاب العاهات فهو يشكر الله على نعمه ، إن الحق ـ سبحانه ـ بواسع رحمته يعطى صاحب العاهة تفوقاً فى مجال آخر . ولنذكر قول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للقلب رافداً
لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

إننا قد نرى أعمى يقود ببصيرته المبصرين إلى الهداية . ونرى أصم كبيتهوفن ـ على سبيل المثال ـ قد فتن الناس بموسيقاه وهو أصم . وهكذا نجد من أصيب بعاهة فإن الله يعوضه بجودٍ وفضل منه فى نواحٍ ومجالات أخرى من حياته . ولا يوجد إله آخر يمكن أن يعوض كافراً ابتلاه الله ؛ لأن الله هو الواحد الأحد : « انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » ، أى انظر يا محمد وتعجب كيف نبّين لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب ما بين حجج عقلية وتوجيه إلى آيات

كونية وترغيب وترهيب وتنبيه وتذكير ومع ذلك فإن هؤلاء الكافرين لا يتفكرون ولا يتدبرون ، بل إنهم يعرضون ويتولون عن الحق بعد بيانه وظهوره .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونلحظ أن « تاء الضمير » فى هذه الآية قد فتحت ، بينما الآية السابقة لما جاءت فيها « تاء الضمير » مضمومة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونلحظ أيضاً أن الآية التى نحن بصددها الآن تأتى فيها كاف الخطاب : « أرأيتكم » بينما الآية السابقة لها لا تحمل كاف الخطاب « أرأيتم » ونعرف أن كل لفظة من هذه الألفاظ قد جاءت لتؤدى معنىً لا يؤدى بغيرها ، وإن تشابهت الأساليب ، فقوله : (أرأيتكم) يشمل ويضم ضمير المخاطب وهو التاء المفتوحة ويشمل أيضا كاف الخطاب والجمع بين علامتى الخطاب (التاء) و(الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شىء ما عليه من مزيد . إنه تنبيه إلى أن هلاكهم سيكون هلاك استئصال وإبادة ، ومرة يقول الحق : « أرأيتم » أى أخبرونى أنتم وأعلمونى إعلاماً يؤكد لى صدق القضية ، ويأتى الاستفهام هنا من مادة « أرى » و« رأى » .

إن السبب فى ذلك أنك حين تستفهم عن شىء إما أن يكون المستفهم منه قد حضر حدوث الشىء ، وإما أن يكون المستفهَم منه لم يحضر حدوث الشىء . فإن كان قد حضر حدوث الشىء فإنك تقول له : أرأيت ما حدث لفلان وفلان ؟ فيقول لك : نعم رأيت كذا وكذا وكذا . وإن كان المستفهَم منه لم يعلم بالأمر ولم يره فهو

يجيب بالنفى ، وهذا ما يحدث بين البشر ، لكن حين يكون الاستفهام من الله ، ويكون الحادث المستفهَم عنه قد حدث من قبل وجود المستفهَم منه ، فالإيمان يقتضى أن يجيب المستفهم منه عن هذا الحادث بـ « نعم » .

ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

وهذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عما حدث لأصحاب الفيل فى عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الحدث موضع رؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله رسوله باستفهام عن حادث لم يره ؟ ونقول : إن الحق بهذا الاستفهام يوضح لرسوله : اسمع منى ، وسماعك منى فوق رؤية عينيك للحدث ، فإذا ما قلت لك : « ألم تر » فمعناها : اعلم علماً يقينياً ، وهذا العلم اليقينى يجب أن تثق فى صدقه كأنك رأيته رؤية العين وفوق ذلك أيضاً فإن عينك قد تخدعك أو تكذب عليك ، ولكن حين يخبرك ربك لا يخدعك ولا يكذب عليك أبداً .

إذن فالحق يريد أن يخرج هذه الأساليب مخرج اليقين . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فحين يحاول إنسان قد أحسنت إليه كثيراً أن يجحد إحسانك ، فأنت لا تقول له : أنا أحسنت إليك ، ولكنك تقول له : أرأيت ما فعلته معك يوم كذا ، ويوم كذا ؟ وهنا يبدو كلامك كاستفهام منك ، لأنك واثق أنه حين يدير رأسه فى الجواب فلن يجد إلا ما يؤيد منطقك من وقوفك إلى جانبه ، وإحسانك إليه ، ولن يجد إلا أن يقول لك : نعم رأيت أنك وقفت بجانبى فى كل المواقف التى تذكرها . وفى مثل هذا القول إلزام لا من موقع المتكلم ، ولكن من واقع المخاطب .

وبعد أن تكلم الحق عن تعنت الكافرين أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم اكتفائهم بالآيات التى أنزلها الله مؤيدة لصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم تماديهم فى اقتراح آيات من عندهم ، وقد اقترحوها فى شىء من الصفاقة والسماجة ، فقالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا
أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ
وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ
إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكلها أسئلة مليئة بالتعنت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى اختار القرآن معجزة ومنهجاً لرسوله صلى الله عليه وسلم . ويعلم سبحانه صدق رسوله فى البلاغ عنه ، لكل ذلك يبين الحق لرسوله أن يبلغ هؤلاء الكافرين أنه سبحانه وتعالى لن يعود عليه أى نفع أو ضر نتيجة إيمانهم به سبحانه ، لكن النفع بالإيمان يكون للعباد ويعود خيره إليهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى له صفات الكمال كلها قبل أن يخلق الخلق . إنها له أزلا وأبدًا .

فبصفات الكمال ـ علماً وقدرة ؛ وحكمة ؛ وإرادة ـ خلق الخلق جميعا . فإياكم أيها الناس أن تفهموا أن إيمانكم بالله يزيده صفة من صفات الجلال أو الجمال ، وإنما الإيمان عائد إليكم أنتم ، فإذا كان منكم متكبرون ومتعنتون ، فالحق سبحانه لا يترك من تكبر وتعنت ليقف أمام منهجه الذى يحكم حركة الحياة فى الأرض ، ولكنه سبحانه يأخذ أهل التكبر والتعنت أخذ عزيز مقتدر . واستقرئوا أيها الناس ما حدث لمن كذبوا رسل الله ، وماذا صنع الله بهم ؟ إنه بقدرته سبحانه وتعالى يستطيع أن يصنع معكم ما صنعه معهم . وإذا ما استقرأتم قصص الرسل مع المكذبين لله وجدتم العذاب قد جاء للقوم بغتة ، فهاهوذا الحق يقول عن قوم عاد :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ

﴿ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لقد تكبر قوم عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه ، وظنوا أنهم أقوى الأقوياء ، وغفلوا عن قدرة الخالق الأعلى وهو القوى الأعظم وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟ فاجأهم الحق بإرسال ريح ذات صوت شديد فى أيام كلها شؤم ليذيقهم عذاب الهوان والخزى والذل فى هذه الدنيا ، ويقسم الحق بأن عذاب الآخرة أشد خزيا ، لأنهم فى هذا اليوم لا يجدون ناصرا لهم لأنهم كفروا بالذى ينصف وينصر وهو الحق جلت قدرته .

وماذا عن قوم ثمود ؟ لقد بين لهم الحق طريق الهداية . لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذبوا نبى الله صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ، فنزلت عليهم الصاعقة لتحرقهم بمهانة بسبب ما فعلوا من تكذيب لرسولهم .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وماذا فعل الحق بأصحاب الفيل ؟ لقد جاء قوم أبرهة لهدم الكعبة ، فاستقبلتهم الطير الأبابيل . . أى التى جاءت فى جماعات كثيرة متتابعة بعضها فى إثر بعض بحجارة من طين متحجر محرق قد كتب وسجل عليهم أن يعذبوا به :

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفيل)

وكل حدث من تلك الأحداث أجراه الله بغتة . ومعنى البغتة أن يفاجىء الخطبُ القومَ بدون مقدمات علم به . وهناك أيضاً من الأحداث الجسام أنزلها الله بالكافرين جهرة ، فهاهم أولاء قوم فرعون يغرقهم الله علناً . وكذلك قارون أهلكه الله جهرة :

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ
أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ
إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ
مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ
قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ
إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن
فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد أخذ قارون نعمة الله ونسبها إلى نفسه ، وصار مفتونا بما امتلك ، وغرق فى الغرور ، فماذا فعل الله به ؟ خسف الله به جهرة وأمام أعين الذين تمنوا مكانه . إذن فمن الممكن أن يأتى عذاب الله بغتة للكافرين به أو يأتيهم بالعذاب جهرة . وما السبب فى التلوين بين « بغتة » و« جهرة » ؟ البغتة تثبت لمن يعبد غير الله أنه مخدوع فى عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قبل هذا الإله أن يعذب أتباعه من حيث لا يشعر . إذن فالبغتة تثبت عجز المعبودين من أصنام وغيرها ، فقد عجزت تلك الأصنام أن تحتاط للعابدين لها . وقد يقول قائل منهم : لقد جاءنا العذاب فجأة ، لكن لو جاء لنا مواجهة لكنا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه .

فيأتى الله أيضاً بالعذاب جهرة فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حجتهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت فى قلوب هؤلاء المعاندين القدرة على إبصار ضرورة الإيمان . ويعامل سبحانه خصوم رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل هذه المعاملة ، فعندما عانده القوم جاءهم الله سبحانه بأمور معجزة لعلهم يتفكرون .

فهاهم أولاء قد اتفقوا على قتله قبل الهجرة ، ويقفون على باب بيته ، ويخرجه الحق من بينهم وهم لا يبصرون ، ولا يفلحون فى التآمر على رسول الله ، ولا ينجح لهم تبييت ضد رسول الله ، ويكون مكر الله فوق كل مكر يريد به أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم إيذاءه به . وهم قد ذهبوا إلى الجن ليسحروا له ، لكن لا هذا السحر قد نفع ، ولا ذاك التبييت أتى بنتيجة . وكانت تكرمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فوق كل شىء . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويكون تذييل الآية - أيضاً - على هيئة استفهام ، والاستفهام هنا - كما علمنا من قبل - إنما جاء ليؤكد المعنى ، وليكون الإقرار من أفواه من يتلقون هذا الاستفهام وعن يقين منهم ، وليكون الاعتراف منهم إجابة بالإقرار ، والإقرار - كما نعلم - هو سيد الأدلة .

وهب أن صاعقة نزلت أو خسفاً حدث فيه عذاب ، فكيف ينجى الله المؤمنين به من هذا العذاب أو ذلك الخسف ؟

إن الهلاك فقط يكون للقوم الظالمين ؛ لأن الهلاك هو إعدام الحياة للحى المتمتع بالحياة ، والذى لا يؤمن إلا بهذه الدنيا إذا جاءته مصيبة لتهلكه فهو يشعر بمرارة الخسران ؛ لأنه لا يعتقد ولا يؤمن بالحياة الأخرى ، لكن المؤمن الذى يتيقن أن له إلهًا وأنه سيعود إليه ليحاسبه ويجزيه عن إيمانه خير الجزاء إن حدثت له محنة فى طى محنة كبرى للكافرين فهو يذهب إلى الجنة ويكون ذلك منحة له لا محنة عليه لتستمر حياته إلى خلود .

وهكذا نجد أن الهلاك إنما يحدث للقوم الظالمين فقط لأنه يُفْقِدهم كل ما كانوا يتمتعون به فى دنياهم وليس لهم فى الآخرة إلا البوار والخسران والعذاب الدائم ، أما غير الظالمين فالحق سبحانه وتعالى ينقلهم إلى حياة خالدة هى خير من هذه الحياة ، إذن فالمؤمنون إنما يتلقون فيوضات الله عليهم فى النعماء وفى البلاء أيضاً .

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى فى الآية التالية عن التصور الإيمانى الذى يجب أن

يرسخ فى أذهان المؤمنين برسول مبلغ عن الله ، وعندما يسمع العقل الطبيعى الفطرى البلاغ عن الرسول فهو يصدقه فوراً ؛ لأن الفطرة عندما ترى فساد الكون ، وترى أن هناك من جاء بمنهج لإصلاح الكون لا بد أن تتجه إلى الإيمان بالمبلغ عن الله وهو الرسول . وعندما ترى الفطرة أن الكون كله قد تم إعداده لخدمة الإنسان ، لا بد لها أن تتساءل عن الخالق لهذا الكون وعن المنهج الذى يجب أن تسير عليه لصيانة هذه النعمة ، نعمة الوجود فى الكون .

ويقتضى الإحساس السليم من الإنسان أن يتعرف إلى حقيقة واضحة ، وهى أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأن هذا الكون ملىء وغنى بالخيرات ، ولم يدع أحد أبداً أنه خلق السموات أو الأرض أو الماء أو الهواء . ولا بد أن يدور فى خلد صاحب الفطرة السليمة تساؤل عن هذا الخالق الأكرم الذى وهب للإنسان حق الاستخلاف فى كل هذا الكون . فإذا ما جاء رسول ليقطع هذا القلق وذلك الصمت ويقول : أنا جئتكم لأخبركم بمن خلقكم ، وبمن خلق السموات ، وبمن خلق الأرض ، وبمن رزقكم هذا الرزق .

هنا تنصت الفطرة إلى سماع الخبر الذى كانت تستشرف له . وإذا ما جاء هذا الرسول مؤيداً بآية من الله ومعجزة لا يقدر عليها البشر ، فالعقل البشرى يعترف اعتراف الإقرار على الفور ؛ لأنه وجد حاجته عند ذلك الرسول .

ولكن على الذين يؤمنون بما جاء به الرسول ، وعلى الرسول نفسه ، وحتى على الكافرين به ، عليهم جميعاً ألا يتعدوا الحدود ، وألا يضعوا أى رسول فى مكان أعلى من منزلته ، لأنه رسول من الله ، إنه واحد من البشر تفضل الله عليه بالوحى واصطفاه للمهمة التى جاء بها . ولا بد للجميع أن يفهم أن الرسول مبلغ عن الله فقط ، وأنه لا يستطيع أن يأتى بالآيات التى يقترحها بعض من القوم ؛ لأن الرسول لا يقترح الآيات ولا يصنعها ، الرسول مقصور على أداء الأمانة الموكلة إليه وهى أمانة البلاغ عن الله . ولذلك يقول لنا الحق :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾